

كيف ولماذا سافرت إلى أوربا؟

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

منذ بضع سنوات - أربع أو مائة ، لا أدري ! - استقر
عزيمى على قضاء الصيف في لبنان ، فجمعت ما غنيت من الثياب
القديمة ، وحشوت بها حقيبة ، وقلت أقضى أياماً في الاسكندرية
ثم أبحر منها الى بيروت . وهناك - في الاسكندرية ، لا بيروت -
لم أدع شركة ملاحية الا دخلت مكتبها واستفسرت من رجالها
عن البواخر ، حتى الذاهبة الى الهند ، ومواعيد وصولها ورحيلها .
وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق ، فيها صور
مُغرية وأسعار منقّرة . فاتفق يوماً أن أجي وكيل « شركة سبتار »
في تزوين السفر الى على الباخرة « اسبيرا » الى ايطاليا ، وكان
الوقت ظهراً ، وأنا جوعان ، فدار رأسى ، ووهن عزيمى ، وكنت
أنتقد عن التذكرة ، ولكنى تذكرت أن « الجواز » يحتاج الى
« تأشيرات » فاعتذرت به وانصرفت .

وعدت الى فندق « بوريفاج » في أقصى « الرمل »
وكنت مقبلاً به ، وأسرعت الى مائدتي فجلست اليها ، وكنت
مهموماً مكروباً موزع النفس ، بين لبنان والباخرة « اسبيرا »
- أى والله ! كما كنا كنت سأقضى الصيف كله على ظهرها ! -
فناديت الخادم وطلبت قليلاً من النبيذ عسى أن يذهب عني الفتور ،
وملأت الكأس ، وتناولتها ، ورفعتها الى فمى ، فسمعت
من ورائى - صوتاً ناعماً رخياً يقول :

« المازني - هذا - حشرة ! »

فارتدت بدى عن فمى ، وهى ترعى ، وسالت عليها قطرات
من النبيذ ، ومضى الصوت الحلو بقرى أديمى :

« حشرة حقيرة - يجب سحقها بالأقدام . »

ففلت مذعوراً وقد خيل الى أن الميون كلها صارت على ،
وغنيت لو أن إدارة الفندق تحرم الكلام على الطعام ، أو تبنى .

بموسيقى فتفرق في أنفاسها العالية القوية هذه الأصوات المخلوة !
ولكن الكلام لم يكن عظوراً ، ولا موسيقى هناك ، فسمعت
مكرها :

« سكبر لا بيق ، ومعرى لا يرعى »

فقلت فى سرى « يا خبر اسود ؟ ! أنا سكبر لا أفيق ؟ ؟
أنا عرييد ؟ ؟ » ودهشت ، ولو أن رجلاً كان يزعمنى كذلك لما
حفلت نفسى ماذا يقول عنى ، ولكنها فتاة - فتاة على التحقيق ..
صوتها وحده دليل على ذلك - تذكرنى بلهجة المحقق ، كما كنا
كنت قد قتلت أباهما ، - قاتله الله على أى حال ! - وكان
الخادم قد وضع أمامى شَبْطَةً^(١) مغرية ، ولكن نفسى انصرفت
عنها وزهدت فيها ، فاضطجعت وأنا أعجب للذين يؤاكلون هذه
الفتاة لماذا لا يتكلمون ؟ ؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع

« رجل مستهتر ، لا يبالي ماذا يقول عن نفسه ، ويظن
لسخافته أن هذا من الظرف » فلم أعد أطيق هذا الطعن ،
واشتهيت أن أكرم أنفاسها بالفوطة ، ولكنى طويتها - أعني -
الفوطة - ووضعتها على المائدة وهمت بالقيام ، فسمعتها تقول :
« على كل حال ماذا ننتظر ؟ إن « اسبيرا » تافر بعد غد ،
واذا لم نشتر التذاكر غدا تأخرنا وفاتتنا . . . »

وتسللت ، كاللص ، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت
وجهها ، من غير أن ترائى ، وكانت مع الأسف جميلة . فزاد عجبى ،
فإن الحسن رى ولين ، وهذه الفتاة تحمل لى فى جوفها بركاناً
فاتراً بالسخط والنقمة وكل ما ينافى معانى الجمال . فقرضت أضراسى
وأقمت لأسافرن على هذه الأسبيرا لأرى آخر هذه الحكاية
وأقبل الليل ، وكنت أتمشى فى حديقة الفندق ، وحدى ،
كأنى أحتاج أن أقول ، وكنت لا أزال أحدث نفسى بما سمعت
من أوصافى ، وكان صدرى كالتخضم المضطرب ، وكان الخدم
بروحون وبجيئون فى أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق
المصفقين ، وكان الأطفال يجررون هنا وهنا ، وأنا ذاهل عن هؤلاء
وأولئك جميعاً بالحجارة التى صكت سمي على الطعام ، فكنت
أخطو خطوات ، وأقف وأقول لنفسى :

« حشرة ... ! »

فقال صوت « أذنم ؟ »

قلت - غير عاني به أو جاعل بالي إليه - « حشرة حقيرة ..

تستحق السحق بالأقدام » واستأنفت السير ، أو الخطو ،
وتركت الخادم - فقد كان أحد الخدم - يسخط ويلعن ، أو
لا يدرى هل يضحك أو يغضبوإني لقي ذهولي هذا ، وإذا بصرخة جافنة ، فالتفت مسرعاً
إلى مصدرها ، فبصرت بفتاة حانية على غصن مرمر علق به ثوبها ،
فوثبت إليها وأعتها على تخلص الثوب ، ولكن بعد أن تحرق
وقلت وأنا أنفض التراب عن كفي وأشير إلى الثقب
الظاهرة في ثوبها :« ليس هذا ذنبي .. إنه ذنب البستاني المهمل الذي يربى
منه الألفاظ ليزين بها الطريق ولا يعنى بتقليمها ... »فقلت : « على العكس ... إني شاكرة لك نجدتك ،
ولولاك لصار الثوب في يدي هلاهيل ... فأنا مدينة لك ... »
فرفست عيني إليها فاذا بها هي التي سلفتني على المائدة
بلسانها وحرمتني لذة الطعام وأنا جائع أتضور ، فارتدت عنها
مقدار خطوة ونبت عن صدري آهة مخنوقة :

فقلت وهي تدنوني :

« ماذا بك ؟ »

ورأيتني أتكلف الابتسام فقلت : « بالدور ... أنت مرة
وأنا مرة »

فقلت : « لا شيء ... لا شيء ... »

فألحت « ولكن ماذا بك ؟ »

قلت : « أه .. لا شيء ، لم أكن أحسب أنك أنت ... »

فقلت مستغربة : « ولكن بالطبع أنا أنا ... »

قلت : « طبعاً . طبعاً . إني سخي »

قلت « هل تعرفني ؟ »

قلت : « أعرفك ؟ الجواب نعم ولا »

قلت : « كيف يمكن هذا ؟ ماذا تعرف عني ؟ »

قلت : « أقل مما تعرفين عني »

قلت : « لا مؤاخذه ، ولكني لا أعرف عنك شيئاً »

قلت : « صحيح ؟ »

قلت : « بالطبع صحيح ! إني لم أرك إلا الساعة »
فتشهدت وأحطت عن صدري حجر ، وقلت : « الحمد لله ! ،
يا ما أكرمك يارب ! »فقلت : « ولكن لماذا تتكلم هكذا ؟ لست أفهم شيئاً ... »
قلت : « أحسن »

قلت : « هل معنى هذا أنك تخشى أن أعرفك ؟ »

قلت : « جداً جداً جداً ! »

فضحكت وقالت « هل أنت مجرم هارب ؟ »

قلت : « شر من مجرم ، وبودي لو أستطيع الهرب ولكن
إلى أين ؟ كلا . لست مجرمًا ولكني حشرة ! »

فصاحت « إيه ؟ حشرة ! »

قلت : « أي نعم . حشرة حقيرة ... »

فوضعت راحتها البيضاء على كتفي وقالت : « لا تتكلم هكذا !
هل أنت مريض ؟ »

قلت : « نعم . نعم . نعم . »

قلت : « مسكين ! ماذا بك ؟ »

قلت : « أذن . . . أذن . . . آه من أذني »

والصية أني كنت أبتسم ، فقد راقني هذا الموقف على الرعم
بما أجن من الحقد على الفتاة ، فأقبلت علي ، وجعلت تهوّن من
أمر أذني وتشير عليّ بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من
« الجليسرين » ، وأن أبلع قرصاً من « الأسيرين » فشكرتها وافترقتا

وفي صباح اليوم التالي ، مررت « بقلم الجوازات » ودار
« القنصلية الإيطالية » ، ثم استخرت الله وذهبت إلى مكتب
« شركة سينار » ، وطلبت تذكرة على الباخرة « اسبيريا » وإذا
بالفتاة تقول لي :

« وأنت أيضاً مسافر عليها ؟ »

قلت : « نعم . هل هناك بأس ؟ »

فضحكت وقالت : « كيف أذنك اليوم ؟ »

قلت : « أذن ؟ آه ! صحيح ! تظن »

قلت : « يظهر أنها شفيت ... »

قالت : « أوه ! لا تقل هذا .. لماذا تشتم نفسك هكذا ؟ »

قلت : « نعم حشرة ، وحشرة حقيرة أيضاً . . . »

قالت : « أوه ! إنك تضجرت بهذا . . . »

قلت : « وسكير عرييد . . . »

فوقفت في الطريق وصاحت

« أهو أنت ؟ »

قلت - مقلداً - : « بالطبع أنا أنا ! »

قالت : « وسمتني ؟ »

قلت : « كل كلمة . . . خربت أذن كالسار المحمى »

قالت : « إني آسفة . . . جداً . . . وأعتذر »

قلت : « آسفة ؟ همم . وأنا أنفلق ! لا بأس . هيا بنا . . . »

قالت : « لقد تمعدت ذلك . . . »

فصحت بها : « إيه ؟ كان هذا كله إلى الآن تمخيلاً ؟ »

قالت : « نعم قلت ما قلت عمداً . . . عرفتك من وجهك

ومن . . . لا مؤاخذه . . . من رجلك . . . ولكنك تؤثر الوحدة

ولا تبالي بالناس وتتي أن تكلمهم ، بل تهرب منهم ، فلماذا أصنع

غير ذلك ؟ »

قلت : « كنت تستطيعين أن تمدحيني مثلاً فأمر . . . أم

هذا حرام ؟ »

قالت : « والآن ألا تمغو عني ؟ »

قلت : عفونا يا ستي ! بعد أن غرمننا نحن تذكرة إلى أوريا

بلا داع !

قالت : « إيه ؟ »

قلت : « نعم . كنت مسافراً إلى لبنان ، فلما سمعت منك

بعض الحقائق . . . »

فاحتجت : « لا تقل الحقائق . . . »

« أردت أن أعرف البقية . . . فقد أوصانا سقراط أن

نعرف أنفسنا »

فوضعت كفها على فمي

فلم أقبلها - أعني كفها - ولكنني عضتها عضة مغيظ ،

ولم أبال صراخها في الطريق ما

ابراهيم عبر القادر المازني

فهمت بأن أقول شيئاً ولكن الرجل سألني عن اسمي ، ولم

أكن أتوقع هذا ، دهبطتني إلى حذائي ، ونفارت من الفتاة

إلى الرجل ، ومن الرجل إلى الفتاة ، وقلت :

« اسمي ؟ ولكن هل هذا ضروري ؟ »

فقال : « لا . . . ولكن يحسن . . . إن أسماء الركاب تكتب

وتوزع على الباخرة »

وكنت قد أتقدته قبل ذلك عن التذكرة ، فلولا هذا

لعدلت ، نقلت :

« اسمي ؟ اسمي ؟ أظنه . . . ابراهيم . . . نعم . . . ابراهيم عبده »

وقالت الفتاة ونحن خارجان :

« هل هذا اسمك الحقيقي ؟ »

قلت : « هل تعرفين اسمي الحقيقي ؟ »

قالت : « لا . . . إذن هذا اسم مستعار ؟ معذرة إذا كنت

أنظفل . . . »

قلت : « لا لا . . . ليس اسمك مستعاراً . . . أنه اسمي من

الآن فصاعداً »

فهزت رأسها وقالت وهي تبسم : « ليس لي حق ، هذا

فضول لا يفتقر . . . سامحني »

فقلت : بلهجة الجد الصارم « أسامحك ؟ كلا ! أبداً . . .

أبداً . . . »

فتمجيت ، ولها المذر ، وقالت : « هل أسأت إليك

شيء ؟ إني آسفة ! »

قلت : « أسأت ؟ أسأت فقط ؟ لقد قتلتي يائزاً ! »

قالت : وهي تدير وجهها لترى وجهي

« أتمزح أم تتكلم جاداً ؟ »

فواجهتها وقلت : « هل تعرفين أني أتمزح ؟ ؟ كلا ! أعني

نعم . تلتني . . . طمنتني هنا » (وأشارت إلى موضع القلب)

فضحكت وقالت : « بهذه السرعة ؟ ! إنك حساس جداً »

قلت : « نعم . جداً . فأتق أن تدوسيني بقدميك . . . »

قالت : « ولكن لماذا أدوسك بقدمي ؟ لست أفهم

كلامك . . . »

قلت : « لأنني حشرة . . . »